تحديـــــــات
النظام الدولي الجديد ومصادر قوة الأمة العربية
دراسة أولية - في علم الاجتماع السياسي -

د. ناهدة عبد الكريم حافظ
كلية الآداب - جامعة بغداد

المقدمة :

كان "برتراند رسل" ، قد ذكر إن أحد المفاهيم الأساسية التي ينبغي أن تكون محوراً لاهتمامات العلوم الاجتماعية هو مفهوم القوة Power . ويبدو هذا الطرح أكثر وضوحاً وأهمية في مجال العلاقات الدولية ، نظراً لما تنطوي عليه من تراتبية في المراكز ، ومن تنوع في مصادر الغنى ، وتباين في القدرة على المبادأة واتخاذ القرار ، ومن ثم الحصول على مكاسب جديدة أو الحفاظ على مصالح قائمة . ولعل فيما يسمى بالنظام الدولي الجديد مثالاً صارخاً لهذا الاختلاف الهائل في توزيع القوة ، وفي سوء استخدامها أيضاً . لقد كان المجتمع الدولي دائماً ضوابط تحكم تصرفات دوله ، لعل في مقدمتها التوازن في قدرات الخصوم، ووجود مجموعة من القواعد المتعارف عليها والمواثيق والاتفاقيات ، وفيما بعد عصبة الأمم ، وهيئة الأمم المتحدة ، غير إن عالم اليوم يشهد انهياراً هائلاً ومريعاً لتلك الضوابط . فقد أصبح أحادي المركز ، وأصبحت الأمم المتحدة نفسها غطاءً شرعياً لمواقف وتصرفات واختبارات غير مشروعة . ومن ثم فقد يكون من المفيد أن نميز اليوم بين القوة ، والقوة الغاشمة ، ونعني بها تلك القدرة الأحادية التأثير التي لا تواجه معارضة حازمة ، وإن واجهت فأنها تبادر فوراً إلى سحقها ومصادرة آثارها .

أن ما يسمى بالنظام الدولي الجديد يشير في مجمله إلى خلل في نمطية العلاقات الدولية ، ولذلك أطلق عليه البعض عبارة "اللانظام الدولي" والذي يهمنا من حيث كونها أمة عربية أن نتلمس مواقعنا فيه ، وآثاره في حاضرنا

ومستقبلنا ، وحساب ما لدينا من مصادر القوة والضعف ، وأن نستفيد من تجاربنا التأريخية الثرية لكي ندافع عن وجودنا في مواجهة تحديات جسيمة ومخاطر هائلة.

إن هذه الدراسة على إيجازها تسعى إلى ما يأتي :

- التعريف بالنظام الدولي الجديد من زاوية علم الاجتماع السياسي مشيرة إلى الجوانب التأريخية والطروحات الأمريكية للتعريف به ، وعلاقة المركز الأمبريالي بالأمبرياليات التابعة ، وبالأطراف الخاضعة للهيمنة ، ثم دور الأمم المتحدة كأداة ضبط وتنظيم العلاقات الدولية في النظام الدولي الجديد .
- بعض المضامين الأيديولوجية ، للنظام الدولي الجديد ، وقد تناولنا فضلاً عن مفهوم الإيديولوجيا ، المضامين العرفية لهذا النظام وتطبيقاتها العملية.
- وأخيراً تناولنا بعض مصادر قوة الفعل العربي إزاء تحديات النظام الدولي الجديد، من خلال مفاهيم البعد الحضاري، والمكانة الاقتصادية والستراتيجية، والجغرافية ، وأهمية التجربة العراقية .

أولاً - <u>النظام الدولي الجديد</u> :

١ - <u>المفهوم</u> :

يجادل البعض حول ما إذا كان النظام الدولي الجديد يمكن أن يحلّل على أساس كونه نظاماً order ، أو على أساس كونه نسقاً (system) . إذ قد يشار إلى النظام بعدّه تلك الملامح والعناصر التي تؤلف البناء[١] . وكان "تالكوت بارسونز" في تحقيقه لمشكلة النظام الاجتماعي العام ، قد أهتم بإظهار طبيعة القوى التي تؤدي إلى أشكال ثابتة نسبياً من التعامل والتنظيم الاجتماعي[٢] . أما النسق، فإن تعريفه يجد في مفهوم التفاعل بؤرة أساسية له. ومن الناحية التشريحية ينظر إلى كل نسق بأعتباره يتضمن ثلاثة عناصر أساسية ، أولها ، الأوضاع Positions أو المنزلات Status ، ثم الأدوار Roles ، وأخيراً

العلاقات بين أولئك الذين يشغلون تلك الأوضاع . إن كلا من تلك العناصر الثلاثة هي جزء لا يتجزأ من المجتمع والثقافة(٣) .

ويلاحظ أن هناك ، من يتداخل في تحليله معنى النسق بمعنى النظام.

يتساءل "قياري محمد اسماعيل" : ما هي العناصر الأولية التي يتكون منها بناء النسق الاجتماعي ، وكيف تتوظف هذه العناصر ، داخل إطار النظام الاجتماعي . ويرى أن النظام الاجتماعي يتألف من مجموعة من العلاقات المحددة في تنظيم يسوده نسقاً من أنماط السلوك المتوقع ومن أهم العناصر المكونة للنظام الاجتماعي ، هي المكانة والدور ، فضلاً عن السلطة والحق والأهداف(٤). وهي نفس عناصر النسق الاجتماعي التي أشرنا إليها ، فيما تقدم من سطور.

ومن جانب علم الاجتماع السياسي يذهب "كابريبل الموند" ، إلى أن الحياة السياسية سوف تبدد بوصفها جسداً من التفاعلات ذات الحدود الخاصة تحيطها نظم اجتماعية تؤثر فيها بشكل مستمر أو بوصفها نظاماً من التفاعلات التي توجد في كل المجتمعات والتي تؤدي وظائف التكامل والتكييف ، أو لوصفها مجموعة من المعاملات والاتصالات . أما في ميدان العلاقات الدولية ، فإن نظرية الاتساق تنتهي إلى النظر إلى العلاقات الدولية بوصفها التفاعل والعلاقات بين الفواعل السياسية ، التي توجد خلال وقت معين . وقد عدّ الدكتور "عبد المنعم سعيد" النظام الدولي نسقاً يفسره ، في ضوء نظرية الاتساق "Theory of systems". بينما أورد الدكتور "عبد الرضا الطعّان" ، تمييزاً بين النسق الدولي والنظام الدولي على أساس أن الأول هو نشاط تبادل له وجوده الفعلي . فهو وجود قائم وحقيقي.

أما النظام الدولي ، فهو "صورة" يتم بموجبها التعرف على المتاعب التي تتسم بها العلاقات الدولية والمحاسن التي يراد بلوغها .. فهو مشروع إرادي في الإصلاح الجزئي للعلاقات الدولية ولإقامة علاقات دولية أخرى(٥).

من جانب آخر صاغ "أماتويل والرشتاين" في دراسته : النظام العالمي الحديث ، الأسس المنهجية والنظرية التي ينبغي أن تنهض عليها دراسة هذا النظام، فهو يؤكد إن المفهوم الرئيسي لتحليل هذا النظام هو النسق الاجتماعي. فهذا النظام هو الوحدة الكبرى للتحليل لفهم كيفية عمل الوحدات المجتمعية والثقافية الأخرى ، وهو يمثل نسقاً له حدوده وبنائه وجماعته وقواعد شرعيته وتماسكه ، وتقوم حياة هذا النظام على تصارع القوى التي تحقق وحدته من خلال التوتر. ويستخدم "والرشتاين" ، مفهوم النسق الاجتماعي بمعنى مختلف ، عما هو شائع، عندما توصف وحدات اجتماعية صغرى كالقبائل والمجتمعات المحلية والدول القومية ، بأنها انساق اجتماعية . والنظام العالمي هو نسق اجتماعي شامل[٦].

أن النظام الدولي الجديد ، يحتمل التحليل في إطار ثنائية الواقع - المثال-، فهو على مستوى التعامل الحقيقي ، والممارسات الواقعية يمثل حالة معينة تتميز بخصائص ومواصفات مستمدة من طبيعة توزيع القوى وتراتبها ، وهو على مستوى المثال أو الأنموذج العقلي ، مشروعاً مثالياً[٧] ، أو صورة مفترضة.

من جانب آخر ، فإن من الممكن استخدام مفهومي النسق والنظام معاً ، على أساس الكل والجزء ، فالمركز الإمبريالي الرئيس هو نسق متميز ، كذلك الحال بالنسبة للإمبرياليات التابعة والتخوم ، غير إن كل هذه الأجزاء ، هي بمثابة نظام كبير معقد متداخل الأجزاء[٨] .

وابتداءً من دون مقدمات ، أقول أن النظام الدولي الجديد هو صرعة اصطلاحية أريد لها أن تكون إحدى مبررات العدوان على العراق لامتناع العالم بالثقافة الأمريكية .

ولذلك يشير "جون ماكارثر" في كتابة : "الجبهة الثانية" إن توجيهات الإعلام الأمريكي بعد العدوان على العراق أكدتْ ضرورة تمجيد قيم مثل الحرية

والصداقة ، والقوة ، والعدل والأنصاف وعدم الخوف ، وطريقة الحياة الأمريكية.. وأن تستخدم رموز معينة في سياقات ذلك الطرح مثل العلم الأمريكي وتمثال الحرية ووثيقة الحقوق الأمريكية وغيرها.

ونحن نقول إذن إن ما يسمى بالنظام الدولي الجديد ، هو عبارة عن تقليعة أمريكية ، وبعبارة "وليام فاف" في مقال له بعنوان : "اللانظام الدولي الجديد" ، نشرت في "الهير الدتربيون" في ١٩٩١/١/٣٠ ، إن من المتوقع أن يسود العالم بعد حرب الخليج شكل من أشكال إللانظام الدولي ، لأن "بوش" ليس لديه أدنى فكرة عن مواصفات هذا النظام . ليس هذا فحسب بل لأن هذا الذي يسمى نظاماً جديداً ، لم يكن سوى عملية تزوير ومسخ واسعة للشرعية الدولية، التي هي الأساس القانوني والشرعي لأي نظام دولي .

غير إن الأتحاد السوفيتي ، بل النظام الشيوعي كله ، لم يعدْ موجوداً على خريطة العالم مع بدء العقد الأخير من القرن العشرين ، وقد كان القطب المضاد للولايات المتحدة خصوصاً وللغرب عموماً . وبذلك تغيرت موازين القوى بين الانساق الفرعية بشكل دراماتيكي سريع . وهكذا راحَ "بوش" يستخدم عبارة النظام الدولي الجديد كشعار انتخابي . وقد ألقى "بوش" خطابين مهمين أمام الكونغرس الأمريكي ، الأول في الثاني عشر من أيلول ١٩٩٠ ، أي قبل العدوان على العراق، والثاني في السادس من آذار عام ١٩٩١ ، أي بعد أنتهاء العدوان الغاشم. وفي كلا الخطابين ركز "بوش" على بدء عصر جديد من السلام ، والعدالة والأزدهار ، ودور جديد للأمم المتحدة ، وأحترام الحرية وحقوق الإنسان(٩).

٢ - الطروحات الحالية :

الطروحات الحالية للنظام الدولي الجديد تتمثل في طرح تصور مثالي عن عالم ما زال لم يولد بعد ، لكنه تصور تزوقه الدعاية ، والطروحات المنمقة

لغوياً، والتي تفصل بينها وبين الوقائع مسافة واسعة في الحيل والتدابير الميكافيلية . أن أهم ما يميز الطروحات الحالية عن النظام الدولي الجديد هو :

أ - غموض تلك الطروحات ، يقول نائب وزير الخارجية الأمريكية "إيفل بونمر" لا أستطيع أن أصف لكم شكل هذا النظام كما ينبغي أن يكون. ويقول "دوغلاس هيرد" وزير خارجية بريطانيا نحن لا نمتلك برنامج عمل أو مخطط بريطاني للنظام الدولي الجديد ، وليس هناك مخطط أمريكي لهذا النظام . ووفق معلوماتي فإن السوفيت أو الفرنسيين لا يمتلكون برنامج عمل مستقل لنظام كهذا[١٠] .

ب - التنازع ، إذْ إن كلا من الدول الأوربية الرئيسة كفرنسا وألمانيا لا تريد أن تعترف للولايات المتحدة الهيمنة المطلقة على هذا النظام . وهناك قوى اقتصادية مهمة لها دورها في منع ذلك التكريس الأحادي للقوة كاليابان والصين والهند . ويبدو الصراع بين الولايات المتحدة وأوربا حول المسائل التجارية نموذجاً واضحاً لذلك التنازع في القوة .

ج - غير إن ذلك التنازع بين المركز الإمبريالي والمراكز الوسيطة قد لا يؤدي إلى حروب بالمعنى العسكري لكنه بالتأكيد مدخلاً لحروب اقتصادية وسياسية.

د - أن كلفة الهيمنة المطلقة ليست هينة ، بل بالعكس باهضة جداً ولا يستطيع المركز الإمبريالي المهيمن أن يوفر كل متطلباتها ، ولذلك فإن المرحلة القادمة قد تشهد نوعاً من "إقتسام السلطة" لتخفيف أعباء وتكاليف الهيمنة على مركز واحد .

٣ - <u>المركز الإمبريالي - الإمبرياليات التابعة - الأطراف الخاضعة</u> :

أن نظرية تقوم على ثنائية المركز والمحيط قد لا تكون كافية . لقد حلل "سمير أمين" ، العلاقات الدولية ، على أساس إن هناك أمماً برجوازية ، وأخرى بروليتارية . غير إننا لا نستطيع أن نهمل حقيقة إن الأنساق السياسية الدولية

تمتاز بتوزيع غير متساوٍ للقدرة أو للقوة . والقوة في إطارها الاجتماعي هي قدرة فرد أو فئة اجتماعية ، على انتهاج سبل في العمل ، إذا أقتضت الضرورة ضد مصالح، بل وضد معارضة الأفراد والفئات الأخرى[١١] . إن نظرة سريعة إلى الوضع الحالي تشير إلى أن الولايات المتحدة هي المركز الإمبريالي الرئيس لسببين في الأقل هي :

الأول : إنها أكبر قوة اقتصادية .

الثاني : إنها أكبر قوة عسكرية من الناحية التكنولوجية .

هذا التفاعل للقوى الاقتصادية والاجتماعية والتأريخية للأمم أصبحتْ ، هذه الوظائف ، وأنماط التفاعل مرتبطة بالأنظمة العالمية الكبرى ، وهو ما منح السياسية بُعداً دولياً .

وهكذا أدتْ عوامل داخلية وخارجية إلى تفكيك النسق الاشتراكي في ثنائية النظام الدولي السابق ، وكان ذلك مدخلاً أولياً لمّا سميَ بالنظام الدولي الجديد . غير إن ذلك لا يعني إن هذا الحدث هو بؤرة التغير الوحيدة ، فثمة امتداد تاريخي لابد من أخذه في الحسبان :

الأول : هو إن الجهد الغربي ، الدعائي والاقتصادي والسياسي ، والعسكري ، ضد الاتحاد السوفيتي ، وبهدف تفكيكه ، استمر طوال عقود من الزمن.

الثاني : ان الحرب العالمية الثانية ، أفرزت وضعا" ساعد على وضع أولى لبنات ما صار يعرف فيما بعد بالنظام الدولي الجديد .

يقول سفير فنلندة السابق لدى الأمم المتحدة ، السيد (ماكس جاكوبسن) ان خيوط النظام الدولي الجديد ، تتصل تأريخياً بخطاب ألقاه الرئيس الأمريكي "روزفلت" في أيار عام (١٩٤٢) ، خلال زيارة قام بها "فايشسلاف مولتوف" وزير خارجية الأتحاد السوفيتي آنذاك إلى واشنطن . ملخص ما قاله "روزفلت" ، إن هناك حاجة إلى تكوين مركز متعدد الأطراف يتألف من أمريكا وبريطانيا

وروسيا ألخ ، يمارس دور الشرطي في العالم . ومن أهم وظائفه هو نزع السلاح عن الدول الصغيرة ، وعلى القوى المكلفة ، بمهام شرطي العالم ، أن تهدد تلك الدول بعزلة إلزامية شاملة أما في حالة عدم أنصياعها ، فإن على تلك القوى ، استخدام السلاح ضدها . وبعد يومين من خطاب "روزفلت" ، أيد وزير خارجية بريطانيا تلك التوجهات والتي كانت تحتل آنذاك نحو نصف العالم ، فضلاً عن فرنسا(١٢).

غير أننا لا نستطيع أن نهمل قوى أخرى ، كاليابان وألمانيا وفرنسا . وهي دول تظل على الرغم من قوتها في مستوى أقل بالمقارنة مع قوة المركز. إن للنظام الدولي الجديد تركيبته السوسيومترية ، غير الاختيارية لأن نجمه البارز مفروض بقوته. وليس بإختيار الآخرين له ، إن أوربا تدخل فيما يشبه الحرب الاقتصادية التجارية مع أمريكا ، كذلك الحال بالنسبة لليابان ودول التمور في جنوب شرقي آسيا . غير إن أمريكا ما زالت تملك ورقة التكنولوجيا الأكثر تقدماً.

ولذلك يصبح النظام الدولي الجديد ، عبارة عن مركز إمبريالي وإمبرياليات فرعية قد تصطدم مع المركز في مواقف معينة لكنها تذعن له في آخر الأمر ، وأطراف بعيدة هي عبارة عن يد وفم ، يد تعبر عن المواد الأولية ، وفم يعبّر عن الاستهلاك ، فهي مزرعة وسوق ، صودرتْ قدراتها التكنولوجية ومنعتْ منها.

ثانياً - <u>بعض المضامين الإيديولوجية للنظام الدولي الجديد</u> :

تتجلى الطبيعة الإيديولوجية للنظام الدولي ، إذا تذكرنا إنه بقدر ما يمثل مشروعاً إرادياً في الاصلاح الجزئي للعلاقات الدولية ، سيمثل مشروعاً لإقامة علاقات دولية أخرى كان قد تمّ إدراكها عقلياً قبل أن تكون قد تحققتْ فعلاً .

ومن هنا ينبغي أن يحلل النظام الدولي في تمثلاته الذهنية أكثر مما يحلّلْ في الأفعال التي تترتب على وجوده عند إعادة تنظيم العلاقات الدولية بموجبه.

إن الإيديولوجية كمنظور تفسيري واقعي أو ميثولوجي ، هي العنصر المميز لأي ثقافة وهي التي تقيم مسافة التمايز بينها وبين الثقافات الأخرى ، كما إنها ترسم حدود الأدوار والمصالح وتبررها أيضاً ، ولذلك ذهب بعض المحللين إلى أن النظام الدولي ، حالة حال أي نظام اجتماعي ، أو إنه يجب أن يحلل كنظام اجتماعي ، ما دام الأمر يتعلق بأدوار محددة بضوابط وتفسيرات إيديولوجية ، توجه نوعاً من تقسيم العمل والتواتر والأنتظام .

ذلك إن الإيديولوجيا هي "مجموعة المبادئ الفكرية والأسس والمفاهيم والقواعد والأعراف القانونية ، وغير القانونية ، التي تنظم العلاقات داخل وخارج المجتمع"(١٣) .

والنظام الدولي المسمى بالجديد لا يخلو كأي نظام آخر من مضمون إيديولوجي ، يحدد السلوك ، ويبرر المواقف ويفسرها ويمنحها معانٍ معينة .

وستناقش فيما يلي بعض المضامين الإيديولوجية كهذا النظام .

١ - المضمون العنصري :

كان العداء بين أمريكا وبريطانيا تقليدياً ، ويمد جذوره إلى عقود طويلة مضت. غير إن العلاقة الحميمية بين بريطانيا التي أصبحت بمثابة حصان طروادة في أوربا ، وبين أمريكا تبدو اليوم بارزة للعيان مثيرة للتساؤل إذ لأول مرة نجد العداء التقليدي للاستعمار البريطاني يتحول إلى وحدة أنكلو - سكسونية مستندة إلى إدعاء بوجود روابط دم ولغة وثقافة مشتركة . وعلى أساس تفوق العنصر الأنكلو - سكسوني ، تبنى روزفلت ، بعد الحرب العالمية الثانية خصوصاً حملة أمريكية - بريطانية مشتركة ضد دول أمريكا اللاتينية ، والصين واليابان ، وضد الألمان وضد جميع الشعوب ذات البشرة السوداء والسمراء .

وعلى صعيد الأنساق الداخلية للمركز الإمبريالي الرئيسي ، والإمبرياليات الوسطى ، نجد التميز العنصري أحد أهم عناصر الإيديولوجيا الاجتماعية ينعكس

في تصرفات إرهابية علنية ضد السود في أمريكا ، وضد المهاجرين واللاجئين إلى بريطانيا وألمانيا وفرنسا . وكانت أبرز أحداث الزمن القصير الماضي هي أحداث "لوس أنجلوس" ، وتنامي تأثير النازية والمضادين للأجانب في ألمانيا . أما في فرنسا فإن التيار العنصري ضد العمال العرب من شمال أفريقيا قوي ومؤثر. وقد ذكر "رامزي كلارك" ، جانباً من مظاهر العنصرية ضد العرب في الولايات المتحدة الأمريكية(١٤) .

إن المضمون العنصري يأخذ أبعاداً خطيرة حين يتجاوز الحدود الداخلية للنسق ، نحو علاقاته بالانساق الأخرى . وقد كان ذلك التجاوز وبكل ما ينطوي عليه من مبررات هو أحد الحجج التي استعمرت على أساسها الشعوب . إذ تحت شعار خادع برّاق أطلق عليه "عبء الرجل الأبيض" ، كرست العنصرية قانونها الذي يسمح بتقسيم البشر ، وتصنيفهم إلى سادة وعبيد ... ولم يقتصر التمييز ومقياس التفوق على العرق واللون ، وأنما إتسع ليشمل خصائص اللغات والثقافات مما أدى إلى تقسيم العالم قسماً وتحت شعارات علمية زائفة إلى مجتمعات متقدمة وأخرى متخلفة وغير قابلة للمساهمة في مضمار الحضارة الإنسانية ، وعدّ إن من حق بل من واجب المجتمعات المتحضرة أن تنشر حضارتنا في العالم(١٥).

إن هذا المضمون الإيديولوجي هو امتداد لإيديولوجيا الاستعمار الذي اعتمد على قانون التفوق والذي يقوم على أساس تصنيف الكائنات الطبيعية والبشرية بطريقة منهجية عملية إلى صفوف متميز بعضها عن الآخر(١٦) .

غير إن هناك ملاحظة مهمة ترتبط بسلوك أقطاب النظام الدولي الجديد، وهي اعتماد منهج التفكيك العرقي ، بهدف إضعاف كل الكيانات التي يمكن أن تكون ذات تأثير ، أو أن تكون معوقاً أو مضاداً لمصالح المراكز الإمبريالية . وهكذا تفكك الاتحاد السوفيتي وجيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا كما إن التآمر على العراق مستمر بهدف تجزئته . ولكن كيف يحدث ذلك وبعض الإمبرياليات

الوسطى كبريطانيا وفرنسا وكندا تعاني من مشكلة تهديدات بالانفصال [كما هي الحال بالنسبة للأيرلنديين في بريطانيا ، أوالفرنسيين في كيوبك] ، إن أقطاب النظام الدولي الجديد يعملون باتجاهين :

الأول : هو تفكيك الكيانات القائمة على أساس عنصرين تفادياً لمخاطرها المحتملة ككيانات موحدة .

الثاني : أعطاء "دروس" للأقليات في الأنساق الداخلية للأقطاب بأن انفصالها سيكون كارثة عليها وسيجر إلى بحرٍ من الدماء كما يحدث في يوغسلافيا والاتحاد السوفيتي .

وبما إن المضمون العنصري في إيديولوجيا النظام الدولي لا ينفصل عن المصلحة ، بل هو الأطار التبريري والفكري لها ، فإن من البديهي أن يسعى هذا النظام لرفع صفة العنصرية عن الصهيونية ، ذلك أن قانون المصلحة الاستعماري هو الذي جعل "نابليون" يعطى الوعد بإنشاء دولة لليهود في فلسطين، ولذلك وصفه "جايم وايزمان" بأنه أول الصهيونيين الحديثين من غير اليهود ، وهو الذي جعل "بلفور" ، يكرر ذلك الوعد لليهود فيما بعد . حين كان نظام أو عنصر الهيمنة البريطاني Paxa Britannica قائماً ، ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى ، أن التفسير العرفي للسيطرة مستمد من نفس الطروحات التي قدمها عنصريو القرن التاسع عشر مثل "تشابرلن" واللورد "غوبينو" وغيرهما[١٧].

٢ - المضمون الديني :

وصف الرئيس القائد صدام حسين العدوان على العراق بالصليبية . وقد كان كذلك فعلاً . أن دين النظام الدولي الجديد ليس مسيحياً ، كما إن "بوش" ، لم يكن على صلة بالمسيح . ومع ذلك فقد جنّد مجموعة من الواعظين لتبرير جرائم ذلك النظام "دينياً" إن واعظين أمثال "بات روبرتسون" و "بيلي غراهام" ،

لا يتورعون كما يقول الدكتور "قاسم أحمد" ، في ارتكاب أبشع الجرائم ضد الدين.

لقد وصف الواعظ "هال لندزي" ، "بوش" ، بأنه الرجل الذي اختاره الله ، لتحقيق النبوءات التي جاء بها الأنجيل . يقول "لندزي" هذه هي المعركة الأولى والأخيرة ضد القوى المعادية للمسيح . ومن القوى المعادية للمسيح (ﷺ) ، التي يذكرها "لندزي" في خطته : الفاتيكان والسوفيت والأوربيون والعرب[١٨] .

كتب "مارزيو" "بلونديت" وهو من أبرز الصحفيين الإيطاليين في مقال نشر على صفحات صحيفة مؤتمر الأساقفة الإيطاليين في الخامس من آذار ١٩٩١ . إن ديناً وثنياً ، يقف وراء قرارات "بوش" في العدوان على العراق .. ونقل عن الأم "ماريا كروسو" ، أحدى قائدات حركة السلام الكاثوليكية ، قولها : ((إن ما أخشاه هو إن "بوش" في خطاباته يستعير لغة ورموز الدين ، ويضيق "بلونديت"، إن في الولايات المتحدة الأمريكية دين خاص أو طائفة تدعي التزامها بالدين الأمريكي. وهذا الدين يروّج لعظمة أمريكا ويطرح أفكاراً ، لتعزيز إنطباعات هلامية لا أساس لها إلا في عقول واضعي هذا الدين الشاذ. فالدين الأمريكي يعادي الكاثوليك، ويشكك فيهم ويتهمهم بالولاء لقوى أجنبية ، ويرى في الهجوم على صدام حسين حملة صليبية أمريكية ، ويرى في أمريكا إمبراطورية الخير المجهزة بالتكنولوجيا ضد المسلمين الغامضين))[١٩] .

ولعل أوضح دليل على هذا المضمون العنصري لإيديولوجيا النظام الدولي الجديد ، هو موقفه من المسلمين في يوغسلافيا السابقة ، الذين يجري قتلهم وإبادتهم بوضوح وعلانية .

إن التفسير الديني للسيطرة يجمع بين مبررات عديدة ، لعل في مقدمتها أن المسلمين خصوصاً ، أناس إرهابيون ، وإنهم يبررون الحرب ونشر دينهم بالقوة. إن مثل هذا الطرح يمكن النظام الدولي الجديد - شن الحرب ضد كل

مشروع إسلامي يستهدف الأسهام في بناء حضارة الإنسان ، أو قمع الحركات السياسية ذات الشعارات الإسلامية مثل حماس الفلسطينية .

٣ - عقدة التفوق :

قال "جورج بوش" في كانون الثاني ١٩٩١ ، "نحن أمريكان" ، (ولدينا مسؤولية فذة في أن نعمل بجد وجهد مضاعف من أجل الحرية وعندما نعمل فإن الحرية هي الأخرى تبدأ بالعمل) .

وفي مناسبة أخرى قال : (في المستقبل المنظور ، لن نسمح بأن تتقدم أية أمة أو مجموعة من الأمم لتسلم القيادة .. إن الجمهورية الأمريكية سوف تستمر في تمثيل أمل البشرية أفضل تمثيل) . فنحن الذين أنقذنا أوربا ووجدنا علاجاً لشلل الأطفال ووصلنا إلى القمر ونوّرنا العالم بثقافتنا نحن الآن على أعتاب قرن جديد، فأي اسم سيحمله هذا القرن ؟ أقول سيكون قرناً أمريكياً آخر[٢٠].

هذا الإحساس بالتفوق الثقافي هو أحد العناصر الإيديولوجية للنظام الدولي الجديد ، وهو عنصر ليس جديد في الواقع ، فقد كانت كل برامج وخطط ونظريات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والغربية تطرح الثقافة الغربية من حيث كونها أنموذجاً تموج ينبغي على الآخرين تقليده . إن كل نظريات التحديث والغربنه والعصرنة تصب في إطار واحد.

يقول : "آيزنستان" : ((إن التحديث من الوجهة التاريخية هو عملية التحول نحو تلك الأنماط من الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي تطورت في أوربا الغربية وأمريكا الشمالية ، بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر . وهذا يعني إن البلدان النامية يمكن أن تسير على طريق الحداثة بمساعدة البلدان المتقدمة التي يمكن استخدام أفكارها وتقنياتها ونشرها في هذه البلدان الفقيرة .

أن دور نظرية التحديث ودعمها الواضح للإستراتيجيات الاقتصادية لوكالات التنمية ، قد جعلها تحتل موقعاً حصيناً في الدوائر الأكاديمية ولاسيما الولايات المتحدة ولعلنا لا نبالغ ، إذا قلنا إن ثقافة النظام الدولي الجديد ، ثقافة معززة بتكنولوجيا مدمرة ، وهذا ما يجعلها بتعبير "تشومسكي" عالم اللغويات المعروف ثقافة دكتاتورية . وقد يكون من المفيد أن نصفها بأنها ثقافة انحطاط القيم ، وتفوق المادة .

غير إن النظام الدولي الجديد ، مع عناصره الإيديولوجية ، المشار إليها ، يمتاز بخاصية مهمة هي إنه في جانب من تصرفات أقطابه ، في الأقل يتجاوز التباين الإيديولوجي ، إلى الاشتراك في المصالح . ولعل ذلك يبرر الحشد الهائل الذي حدث ضد العراق. ويفسر تعدد جنسيات القوات المشاركة في الصومال وفي يوغسلافيا .. هذا أمر يقودنا إلى الحديث عن ضوابط النظام الدولي الجديد في الفقرة التالية .

أن تبرير السيطرة الثقافية يرد من مصادر عديدة لعل في مقدمتها العداء الثقافي الذي تراكم طوال قرون بين ثقافات الشمال والجنوب ، وبين ثقافات الغنى والفقر ، والذي غذته الأفكار العنصرية ، والتعصب الديني ، وصراع المصالح. إن السيطرة الثقافية التي يحاول النظام الدولي الجديد تكريسها ، تستهدف تدمير كل نهضة ثقافية يمكن أن تهدد ثقافة المراكز والمراكز الإمبريالية الوسطى[٢١].

ولاشك إن ثقافة النظام الدولي الجديد تمتلك اليوم ميزتين مهمتين هما :

الميزة الأولى : هي التطور التكنولوجي المتواصل في مجال الأسلحة على وجه الخصوص ، والذي يجعل الغرب ، وفي المقدمة منه أمريكا ، في موقع يمكنه من فرض ثقافته .

الميزة الثانية : هي القدرات الهائلة في مجالات الإعلام المختلفة ، والتي تجعل الغرب قادراً على طرح أنموذجه الثقافي الخاص على أقطار التخوم خصوصاً.

أما الميزة الثالثة : وهي القدرة الاقتصادية الأمريكية التي تشتري ذمم الشعوب بالأموال والمساعدات والمعونات .

ثالثاً – ضوابط النظام الدولي الجديد :

يمكن القول أن تلك الضوابط تتمثل في مجموعة المبادئ المسماة بالقانون الدولي ، وفي منظمة الأمم المتحدة ، ومؤسساتها ووكالاتها . إن العلاقات الخارجية للأنساق السياسية ، ذات المصالح المتباينة لابد أن تكون محكومة بنوع من الضوابط ، التي تحول دون الدخول في صراعات قد تصل إلى حالة الحرب. ولعل من أول الضوابط هو القوى الذاتية للأنساق نفسها والتي تمثل ردعاً متبادلاً يؤدي إلى نشوء حالة من التوازن التي يستند إليها السلام . وقد كان العالم ، ومنذ الحرب العالمية الثانية يعيش على أساس حالة التوازن المستندة إلى مبدأ الردع المقابل للقطبين .

وفي الوقت نفسه استطاع العالم أن يشهد عقد سلسلة من الاتفاقيات والمواثيق ، كما استفاد من بعض التجارب لكي يطور تقاليد معينة في التعامل الدولي ، وقد توج العالم جهوده بظهور عصبة الأمم ، ثم الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية .

غير إن أنهيار الاتحاد السوفيتي ، أسقط الثنائية ، ليحل بدلها هيمنة المركز الواحد الذي يجمع قوى وعوامل التأثير المتفوقة ، على كل المراكز الأخرى ، وهذا الأمر مهدّ إلى أن يصبح المركز الذي كان أحد القطبين (الاتحاد السوفيتي سابقاً وروسيا حالياً) ، تابعاً للمركز المهيمن الواحد ، وليس على خريطة هذا الكوكب بديل جاهز للاتحاد السوفيتي ، في المنظور الآني على الأقل.

هذا الوضع مهدّ للتأثير على وضع الأمم المتحدة ، وأعاد صياغة دورها كضابط للعلاقات الدولية .

فعلى سبيل المثال كانت الأمم المتحدة تلتزم بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول ، إلا إن (أطروحة حقوق الإنسان) أباحت مثل هذا التدخل وأعطته الغطاء الشرعي . إن الولايات المتحدة تستخدم اليوم هذه الورقة على نطاق واسع في الصين وإندونيسيا والعراق ، كما استخدمتها في غزو الصومال ، لكن مبدأ المصلحة فوق كل شيء مما يجعل هذه الورقة ذات وجهين أيضاً ، ففي حين يرفع وجهها الأحمر ضد العين ، تبدو خضراء في مواجهة الإسرائيليين الذين يضطهدون الفلسطينيين يومياً[٢٢].

إن الولايات المتحدة تحاول بالطبع أن يكون لمواقفها غطاءً شرعياً مستمداً من الأمم المتحدة ، غير إن أحدى الوثائق الأمريكية تشير إلى (إن النظام الدولي الجديد مدعوم كلياً من الولايات المتحدة الأمريكية ، وإن عليها أن تتصرف منفردة، عندما يتعذر وجود تحرك جماعي . فضلاً عن ذلك فإن الولايات المتحدة سوف تسعى إلى وضع ضوابط جديدة للعلاقات الدولية تؤمن مصالحها . يقول أحد منظريها : ((إن الاستقرار في العالم يجب أن تفرضه الولايات المتحدة بالاعتماد على إمكانياتها الخاصة ، وقد يتطلب ذلك إنشاء قوانين وأنظمة عالمية جديدة . لقد أصبحت الأمم المتحدة أداة طيعة بيد المركز الإمبريالي المهيمن والإمبرياليات الوسطى ، وبذلك فقدت دورها كمؤسسة ضابط للعلاقات الدولية ولسلوك الأنساق السياسية .

رابعاً – مصادر قوة الوطن العربي إزاء تحديات النظام الدولي الجديد :

يمكن أن تحدد مصادر قوة الوطن العربي إزاء تحديات النظام الدولي الجديد فيما يلي :

١ – البعد التاريخي العميق لحضارة الوطن العربي ، والتي تشكل ملامح هوية يصعب تشويهها ، أو تغيير ملامحها بسهولة .

٢ - البعد الاقتصادي ، ممثلاً فيما يملكه الوطن العربي من موارد يقع النفط في مقدمتها .

٣ - البعد الجغرافي : إذ يمتد الوطن العربي إلى جزء من أفريقيا وجزء من آسيا ، ويشغل مساحة واسعة إذا نظرنا إليها بمنظور الوحدة . ويشكل هذا البعد ميزة ستراتيجية مهمة في إطار أي نظام دولي .

٤ - البعد العقائدي الديني ممثلاً بالرسالة الإسلامية التي تشكل جانباً من هوية الوطن العربي ، وتحصنه ضد كثير من الطروحات الإلحادية ، كما تمنح مواطنيه قوة الاندفاع الأستشهادي في مواجهة الأخطار المتفاقمة ضد عقيدتهم.

٥ - التجربة العراقية : إن مما لانقاش حوله ، إن حضارة الوطن العربي عريقة عراقة الزمن وهي بذلك ، قد أوغلتْ في التأريخ جذوراً ، وما زالت تمتلك جذوة الماضي في الحاضر والتطلع المشروع للمستقبل . إن الخلفية الحضارية للأمة تمنحها مقومات القوة ، المتأصلة في القيمة التاريخية لإنجازاتها باعتبارها أم الحضارات الإنسانية ، وأساس تراكمها اللاحق.

أما البعد الاقتصادي ، فهو سلاح ذو حدين في الواقع ، إذ أن ثروات الوطن العربي الهائلة كانت دائماً تشجع على كثافة التآمر الخطر عليه واستمراره وبذلك كانت وبالاً على جماهيره لكنها في الوقت نفسه إن آمنَ استثمارها عادت عليه بنفع عميم . ولقد أثبت استخدام سلاح النفط في القيام بإجراءات فعّالة حقيقية لتعميق آثاره.

إن في الوطن العربي أعظم أحتياطي للنفط وفيه مختلف أنواع المعادن الأخرى . فضلاً عن إمكانات زراعية هائلة . غير إن المشكلة تكمن في طبيعة النخب الحاكمة في كثير من إرجائه وهي نخب مرتبطة مصيرياً بالقوى الخارجية إلى حد أصبحت معه (أستعماراً داخلياً يتناغم في سلوكه مع قوى المراكز

الخارجية المهيمنة ، عاملاً على تحقيق مصالحها ، وتأييد قراراتها . وللوطن العربي بعدهُ الجغرافي الستراتيجي الذي جعله هدفاً للغزاة والطامعين على مر التأريخ ، ولاشك أن أي نظام دولي لا يستطيع أن يتجاهل الأثر الستراتيجي لموقع الوطن العربي ومساحته ، ولذلك فإن القوى الكبرى عملتْ بكل طاقتها على تشتيته وتجزئته بهدف تسهيل السيطرة على أجزائه.

ومن هنا فإن الوحدة العربية شغل الهدف الأعظم ، وستظل المؤامرات والضغوط من قوى مختلفة ، تؤدي دورها في محاولة تعويق قيامها . إن الوطن العربي الواحد سيكون بالتأكيد قوة عظمى في أي نظام دولي(٢٣).

ويشكل الإسلام الحنيف أحد المصادر المهمة للقوة ، فقد أدّت العقيدة الإسلامية في الماضي دورها في دحر الهجمة الصليبية . وتؤدي اليوم أيضاً دورها في إيجاد الحصانة النفسية ضد محاولات تزييف العقيدة ، أو إضعافها ، وبالتالي حذف تأثيرها في سلوك المواطن العربي المسلم.

من جانب آخر فإن التجربة العراقية التي تمثلت في مواجهة العدوان الثلاثيني الغاشم تمثل موقفاً كسر حاجز الخوف والتردد في مواجهة الهيمنة التي يمثلها المركز الإمبريالي والمراكز الإمبريالية الوسطى ، وتعني تلك التجربة ببساطة ووضوح ، إن من الممكن أختيار المواجهة بدلاً من الأذعان والخضوع مهما كانت النتائج الآتية والمباشرة للصراع ، لأن النتائج اللاحقة ستكون بمثابة الاستثمار الأفضل للخبرة ، في مواقف الصراع القادمة ، فضلاً عما تؤدي إليه من عملية نضج لأهداف الأعداء تأخذ مكانها في عقول الناس وتنعكس على تصرفاتهم واختياراتهم.

لقد خسر العراق بالمنظور المادي والسطحي معاً كثيراً من مظاهر المدينة فيه. وما زال يعيش حالة من الحصار الاقتصادي الصعب تنعكس على مجمل أوضاعه الاجتماعية ، وتهدده مخاطر التجزئة والتقسيم ، ومع ذلك كله فإن التجربة العراقية ستظل مصدر قوة للجماهير العربية وستنعكس نتائجها على نضالاتهم اللاحقة.

الخلاصة :

حاولنا في هذه الصفحات ، أن نقدم خلاصات من مواصفات النظام الدولي الجديد من حيث مفهومه ، وتاريخه ، ومضامينه الإيديولوجية من خلال منظورات علم الاجتماع السياسي . وإذا كنا قد أبتعدنا عن الطروحات والتصورات النظرية المعقدة ، فلأننا تؤمن أن البحث الاجتماعي العلمي في ظل ظروف كهذه ينبغي أن يكون أداة توعية بجانب وظيفته العلمية المحصنة.

أن النظام الدولي الجديد نظام مضاد لطموحات الشعوب نظراً لمّا يتبناه من أفكار عنصرية ودينية ضيقة ، ولما يدفع تصرفاته ومواقفه من شعور بالتفوق . إن آثار النظام المذكور ظاهرة للعيان في قطرنا : التدمير والتجويع والمرض والفقر والتهديد بالتجزئة ، ومحاولات الأبتزاز على حساب الكرامة . غير إن التجربة العراقية ستظل رائدة وستظل مناراً لكل الشعوب .

الهوامش والمراجع :

١ - الحسن، أحسان محمد (د) ، علم الاجتماع السياسي (ص٥٦-٥٧).

٢ - الحسن، أحسان محمد (د) ، علم الاجتماع : (بغداد، ص١٨-٢٠).

2 - Bierstedt, R. The social order (New York : McGraw-Hill, 1970) . P. VII.

٢ - د. محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع (الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ١٩٨٨) ص٤٦٦.

3 - Bell, E.H. , Social foundations of human behavior (New York : Harper, 1961) , pp. 178-178.

٤ - د. قياري محمد اسماعيل، المدخل إلى علم الاجتماع المعاصر (الأسكندرية: منشأة المعارف) ، ص١١١ ، ١٩٩٠.

٥ - راجع عرضاً لهذه الأفكار في :

د. عبد الرضا الطعان - الإيديولوجية والنظام الدولي الجديد - مقال في : النظام الدولي الجديد - تحرير د. باسل البستاني (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٩٢) ، ص١٦٠-١٦٢.

٦ - د. محمد علي محمد، أصول علم الاجتماع السياسي (الأسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩) ، ص٤٣١-٤٣٢.

٧ - ميخائيل غورباتشوف ، إعادة البناء والفكر الاشتراكي (البيروسترويكا) ترجمة د. عباس خلف (بغداد : شركة المعرفة ، ١٩٩٠) . ص١٧٦.

٨ - د. محمد علي محمد ، المصدر السابق ، ص٤٢٧.

٩ - قاسم أحمد ، النظام الدولي الجديد ، ترجمة د. بشير العلاّف ، وزارة الثقافة والأعلام ، (بغداد : ١٩٩٢) ص١٥-١٦ .